البيان النبوي.. تفرد وخصوصية

قراءة في الأدبيات

د.خالد فهمي - أستاذ اللغة العربية - جامعة المنوفية

في ظل الجاري اليوم من التعرض لمقام النبي الكريم ﷺ فإن أولى علامات الانتصار له هي فحص جوانب عظمته الباقية على الزمان.

وفحص خصائص بيانه أمر مهم جدًّا دعويًّا وإنسانيًّا وحضاريًّا.

ومن الثابت الوارد في حق اللسان النبوي الكريم أنه أوتي جوامع الكلم، وهو بعض المفهوم من منطوق الحديث الصحيح الذى يروي فيه أبوموسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت فواتح الكلم وخواتمه» (صححه الألباني).

صحيح أن الحديث مروي في باب مناقب المصطفى ﷺ، وصحيح أنه مثار ثناء وارتقاء، لكنه مع ذلك شيء ينبغي أن يتأمل في سياق عظمة الرسالة التي جاء بها، تلك الرسالة التي ترى البيان شرطًا تأسيسيًّا لمعنى النبوة ووظائفها، وهو بعض المفهوم من المنة الإلهية الكريمة في مفتتح سورة الرحمن في ﴿علمه البيان﴾ وهو بعض المفهوم الذى توصل إليه سادتنا الأصوليون عندما قرروا أن التفهيم أصل تبني عليه الشريعة، على ما قرر- مثلًا- الإمام الشاطبي في الموافقات.

على أن المهم جدًّا في هذا السياق أن نرى هذا الحديث يمثل ظاهرة جديرة بالدرس والتأمل، وأعني بذلك أن علماء السيرة- ومن ظاهرهم من علماء الحديث تعيينًا- اعتنوا ببحث هذه الظاهرة، وهو بعض ما يتجلى في الأبواب الكبيرة التي وردت في كثير من المصنفات التراثية حول كلامه ﷺ، وهو ما تجد أمثلة عليه في:

الشمائل، للإمام الترمذي، المتوفى ٢٧٩هـ.

جمع الوسائل في شرح الشمائل، للإمام القاري، المتوفى ١٠١٤هـ.

شرح الشمائل، للإمام المناوي المصري، المتوفى ١٠٣١هـ.

وهذا الكتاب بشرحيه مثال واحد لما أخبرتك عنه من العناية الموصولة في سلف الأمة وخلفها بهذا الباب المهم من أبواب نبوة المصطفى ﷺ، وإلا فإن ثمة تاريخًا ممتدًا يعيي الجامعين من الأدبيات الواصفة و الشاهدة لبيانه ﷺ.

خصائص المنطق النبوي

ومن تأمل المرويات الحديثية حول منطقه وكلامه يقف على عدد مهم من الخصائص المائزة والفارقة في آن معًا، تتعاطى مع مسألة بيانه التي يجب أن ترعى خلال كونها مسألة تأسيسية في أمر النبوة وتكوينها، وهذه الخصائص التي نطقت بها المرويات الحديثية مجملة فيما يلي:

١- إيثار الوضوح والبيان، وهو الأمر الذي تجده ظاهرًا مستعلنًا في حديث أم المؤمنين عائشة- رضى الله عنها- أنها قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد سردكم، أو كسردكم، ولكنه يتكلم بكلام بين»، وفي شرحه يبين القاري أنه ﷺ لم يكن يعجل في كلامه، ولا تتابع في كلامه بحيث يلتبس على السامع، بل كان يفصل كلامه، ويتكلم بكلام واضح مفهوم غاية الوضوح.

وهذه السمة تبدو مفهومة ومقبولة في إطار كونه ﷺ مأمورًا بالبلاغ للناس، وليس ثمة تكليف دون إيضاح وإفهام وتبيين، وفي ذلك من الشفقة والرحمة بالخلق الأمر الظاهر الجلي.

٢- الكلام عند الحاجة، ومما ورد في وصف منطقه ﷺ ما رواه هند بن أبي هالة أنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يتكلم في غير حاجة، أي من غير ضرورة دينية أو دنيوية، وهو أمر مفهوم في إطار قضية التحرز والتوخي من الكلام بلا فائدة حسية أو معنوية، والمفهوم هو التطبيق العملي لقول الله تعالى: ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾.

وهذا الذي نذكره هنا- مستنبطًا من حديث ابن أبي هالة- استقر قانونًا ملهمًا في أيدي البلاغيين القدامى، وعلماء علم لغة النص المعاصرين يعين على تفهم الخطاب، وهو المعروف بمبدأ: تحكيم المقام، وهو بعض المفهوم من قول الحديث إنه لم يكن يتكلم من غير حاجة، فالحاجة، أو الضرورة أيا ما كان نوعها تجعل للكلام الصادر بشأنها قيمة ووجاهة، وتجعل ارتباط المتلقين له بمرسله ارتباطًا ذا خصائص نوعية مؤثرة.

٣- إحاطة الكلام افتتاحًا واختتامًا بذكر الله تعالى، وقد نص العلماء في معرض بيان خصائصه ﷺ في الكلام أنه كان يفتتح الكلام ويختمه أو يختتمه بذكر الله تعالى، والمعنى أن كلامه ﷺ كان محفوفًا بذكر الله، ومستعانًا بالله، ويستفاد من هذه السمة تعليم الأمة استيعاب الزمان بذكر الوقتين ابتداءً وانتهاءً لتحقيق البركة حالًا وقالًا.

٤- التكلم بجوامع الكلم، وهذه سمة من متواتر ما استقر عند أهل العلم وصفًا لمنطقه ﷺ، وهي تعني انطلاقه فيه واحتكامه إلى القرآن في كلامه، وهو من هذه الناحية أعلى نموذج ذاب القرآن الكريم في جنانه وتجلى على لسانه.

صحيح أن هذه السمة مسوقة سوق المدح في شأن حديثه صلوات الله وسلامه عليه، لكن ذلك ليس كل ما في المسألة، بل هي عاكسة لأمر مهم جدًّا.. أشار إليه القاري في شرحه لشمائل الترمذي، عندما قرر أن واحدًا من معاني هذه السمة جمعه بين فعل القرآن وقوله في سلوكه ﷺ.

أضف إلى ذلك أن هذه السمة تعكس مسألة مهمة جدًّا متعلقة بمستوى بديع من القدرة العقلية، والاتزان الانفعالي تتجلى في التكلم بألفاظ يسيرة متضمنة لمعان كثيرة، وهو أمر جاء في موضعه، إذ قد ثبت له من قبل بعثته هذه الرجاحة التي كان الكلام مجلى ظهورها، ومسرح تجلياتها، ولأمر ما قالوا قديمًا: المرء مخبوء تحت لسانه، فإذا تكلم ظهر، وفي هذا السياق يمكن أن يقف المرء طويلًا أمام النصوص العوالي التالية:

«المحتكر ملعون» (المستدرك للحاكم).

«الندم توبة» (مسند أحمد).

«الصوم جنة» (سنن النسائي).

«المستشار مؤتمن» (صحيح مسلم).

«الصبر رضا» (تاريخ ابن عساكر).

ففي هذه النصوص دليل واضح على هذه السمة، ودليل واضح على ما يندرج تحتها من علم وافر، لا فضول فيه ولا تقصير، بحيث لا يمكن استشعار نقصان أو زيادة فيه.

جوامع الكلم الموصوف بها حديثه ﷺ نصوص مكتنزة بالحكمة، ترمي نحو الفصل بين الحق و الباطل، ومن ثم كان كلامه ﷺ فصلًا، متناسقًا.

٥- استثمار اللسان وغير اللسان في منطقه ﷺ، ومما اتسم به حديثه ﷺ أنه كان حريصًا على استثمار اللغة، أي الألفاظ بجوار أعضاء جسمه الشريف في عملية التواصل مع الآخرين، في بر بالغ ظاهر من وصفه بأنه لم يكن جافيًا ولا غليظًا قولًا وفعلًا، وفي هذا السياق يرصد شراح المرويات حول صفة كلامه ما يلي:

أ- أنه إذا أشار إلى أحد أشار إليه بيده، أو بكفه كلها، فرارًا من احتمال مظنة التكبر والتجبر.

ب - وأنه إذا تعجب قلب كفه من الهيئة التي كانت عليها حال التعجب.

ج - وأنه يصل إشارته بكلامه في المسألة التي يستعمل الإشارة فيها.

د- وأنه إذا غضب أعرض وأشاح إما عدولًا عما يقتضيه الغضب، أو أظهره التماسًا لفهم الآخرين.

هـ- وأنه إذا فرح غض طرفه، تواضعًا، وظهرت الوضاءة على وجهه..

وفي هذا السياق يمكن صنع معجم لإشاراته ﷺ يكون هاديًا لتحصيل المراد منها في سياقاتها المختلفة، توصلًا إلى دراسة أساليب الاتصال



غير اللفظي عنده وغاياته، وآثاره في إيضاح المعاني، والتأثير في المخاطبين والمستمعين.

كانت هذه الخصائص الأربعة هي ما دار حولها مرويات وصف حديثه ومنطقه في أدبيات السيرة النبوية المطهرة قديمًا في هذا الباب المهم.

تفرد البيان النبوي.. قراءة في الأدبيات المعاصرة

لقد كان لبعض ما مر من سمات وخصائص، أدركها شراح الأحاديث النبوية المتعلقة ببيان صفة منطق النبي الأنور ﷺ مما ورد في أدبيات شمائله ﷺ.. أثر في فتح الطريق أمام إفراد البيان النبوي بفضل الدراسة وإنعام النظر، حتى صح القول بتفرده وخصوصيته من دون غيره من أنماط الكلام التي يتعاطها البشر جميعًا.

وفي هذا السياق تأتي مجموعة من الأدبيات المعاصرة التي التفتت إلى هذه الخصوصية التي تجلت في التأليف المستقل في البلاغة النبوية، والبيان النبوي، وسنقف عند أمثلة لمجموعتين من هذه الأدبيات نرصد من خلالهما ما توافر لهذا البيان الخصب من الميزات والسمات، من جانب، وما تفتحه من آفاق لا تزال رحبة أمام الدارسين في هذا المجال من جانب آخر كما يلي:

أولا: أدبيات البيان النبوي المعاصرة (طريق للتأصيل والتطبيق وكشف للخصائص):

وفي هذه النقطة تأتي العناوين التالية المختارة من أزمنة وأمكنة مختلفة، ولمؤلفين ذوي مشارب وتخصصات مختلفة؛ لتعكس تواتر ما اختص به البيان النبوي من ميزات جعلته في الذروة من البيان البشري:

١- البلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي، ١٩٢٦م.

٢- البيان النبوي، للدكتور محمد رجب البيومي، ١٩٨٧.

٣- التصوير الفني في الحديث النبوي، لمحمد الصباغ، ١٩٨٨م.

٤- من بلاغة النبوة، للدكتور عبدالقادر حسين، ١٩٩٣م.

٥- الروائع والبدائع في البيان النبوي، لمحمد نعمان الدين الندوي، ١٩٩٦م.

ويلاحظ على هذه القائمة المختارة ما يلي:

أ- امتداد العناية بالتأليف المستقل في البيان النبوي زمنيًا ليغطي العصر الحديث منذ فترة قديمة إلى يومنا هذا.

ب- امتداد العناية بالتأليف المستقل في البيان النبوي في الجزء العربي من العالم الإسلامي (في مصر والشام..)، والجزء غير العربي من العالم الإسلامي (في الهند..).

ج- اتساع مساحة الدرس للبيان النبوي ليغطي جوانب التنظير والتطبيق جميعًا.

د- اتصال التأليف في البيان النبوي الشريف في العصر الحديث بما ورد عن تاريخ العلم في هذا الباب عند المسلمين القدماء.

وقد برزت الحقائق التالية في تناول هذه المجموعة المختارة للبيان النبوي، بحيث يمكن أن نقرر أن الدراسة النظرية التطبيقية لنصوص من البيان النبوي أكدت ما تقرر قديمًا في باب تفرد كلامه ﷺ:

١- الخلوص والقصد والاستيفاء، وهي ثلاثة دعائم أقام عليها الرافعي درسه للبلاغة النبوية، وهذه الدعائم هي الترجمة المعاصرة لما كان معروفًا سلفًا من حيازته ﷺ لجوامع الكلم، وانتفاء اللغو عن كلامه، إذ كلامه فصل، لا فضول فيه.

وفي هذا السياق يلتفت الرافعي إلى مسألة جوهرية وحاكمة في النظر إلى بيانه ﷺ وهي من متواتر المعلوم عنه، وهي نفي الشعر عنه، وفي هذه

الحقيقة التي يعيد الرافعي استثمارها هنا إشارة مهمة لتخليص كلامه ﷺ من شبه التخيل والمبالغة، ومجافاة الحقيقة والتهويم إلى غير ذلك مما هو لصيق بطبيعة النصوص الشعرية، وهي التفاتة موفقة جدًا من الرافعي.

٢- وفي محطة ثانية ينطلق الندوي وعبدالقادر حسين تعيينًا من استثمار الثابت من خصائص بيانه ﷺ في التماس النماذج التطبيقية المبرهنة على ما جاء إجمالا في باب وصف منطقه وحديثه ﷺ، إذ التفت الندوي إلى ما سماه بإعجاز الإيجاز، ممثلا على ذلك بنموذج خطبته ﷺ بمناسبة الكسوف التي يقول فيها بعد الثناء على الله تعالى: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا حياته، فإذا رأيتموها فافزعوا إلى الصلاة». ويقف الندوي أمام نموذج فريد من أدب الدفاع عن الحق، ومحاصرة الأساطير المهددة لمنطقة الإيمان الراشد الأسمى.

وقد استثمر الندوي ما روي قديمًا من علامات تظهر حين يغضب رسول الله ﷺ لانتهاك حرمات الله في تحليله لقول المصطفى: «أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى له أم لا؟! فوالذي نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئًا إلا جاء يوم القيامة يحمله في عنقه»!

ففي هذا النموذج الذى اختصرناه دليل على انسجام البيان النبوي مع المقام وتعاطيه مع الموقف، والتحليل المعجمي والأسلوبي للنص الكريم كاشف عن بنية الغضب، وآليات الزجر والتحريض المانعة من الغلول، ومن انتهاك حرمة المال العام.

وفي كل تحليلاته التطبيقية يبرز الأستاذ الندوي ما استقر من أمر حيازة المصطفى ﷺ لجوامع الكلم.

وهي الخصائص التي انطلق منها عبدالقادر حسين في تحليله لعدد من

هذه أدلة انسجام البيان النبوي مع المقام وتعاطيه مع الموقف

النصوص النبوية، وإن كان قد فرقها، فلم تظهر الخصائص جلية مجموعة في حيز واحد.

٣- أما محاولة محمد الصباغ في التصوير الفني في الحديث النبوي، ففضلًا عن انطلاقها من نقطة مبدئية هي: التماس مع النص القرآني العزيز، وهو بعض المستفاد من عنوان الدراسة التي تغازل عنوان دراسة المرحوم الأستاذ سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، وهو بعض المفهوم- كما مر بنا هنا- من وصف حديث النبي ﷺ بأنه أعطي جوامع الكلم، بمعنى ذوبان القرآن في لسانه.. هذه النقطة المبدئية على فضلها لم تظهر الظهور اللائق بها في الأدبيات المعاصرة حتى في عمل محمد الصباغ هنا.

وقد جاءت خصائص العلو البياني للكلام النبوي واضحة عنده، وواضحة عند د.محمد مصطفى هدارة مقدم الكتاب رحمه الله.

٤- وازداد وضوح هذه السمة التي تستمد ألقها وبريقها من سقي القرآن الكريم لشجرة البيان النبوي عند محمد رجب البيومي، الذى يقرر أن القرآن الكريم هو أستاذ محمد ﷺ، ليقرر أن إبداع النص النبوي فرع عن إعجاز النص القرآني.

ثانيا: آفاق جديدة

على أنه من المهم جدًا أن نقرر أن ثمة أبوابًا وآفاقًا جديدة لم تزل رحبة تحتاج إلى السير في مضمارها؛ كشفًا عما يميز البيان النبوي الكريم من خلال التعانق مع المعرفة اللغوية والبلاغية المعاصرة، وهو ما يمكن أن ندلل عليه بأمثلة دالة على أن الطريق لا تزال طويلة أمام من يطمح إلى الكشف عن ميزات الخطاب النبوي الشريف وهي:

١- الخصائص الفنية في الأدب النبوي، للدكتور محمد بن سعد الدبل، ١٤١٩هـ.

٢- تحويلات الطلب ومحددات الدلالة، مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، للدكتور حسام أحمد قاسم، ٢٠٠٥م.

٣- مقدمة في نظرية البلاغة النبوية، السياق وتوجيه دلالة النص، للدكتور عيد بليغ، ٢٠٠٨م.

فهذه نماذج ثلاثة تفتح سبلًا متنوعة لإمكان التعاطي مع الحديث النبوي من مستويات متعددة كلاسيكية تقليدية، على ما يتبدى من دراسة محمد الدبل، ودلالية لغوية في دراسة حسام قاسم، وإرهاصية تطمح إلى ميلاد نظرية بلاغية خاصة بالحديث النبوي تتعاطى مع خصوصيته، تدخل في حوار مثمر مع عدد من المقولات في الدساتير البلاغية الوافدة من الجغرافية الغربية بغية نقضه، والقفز بعيدًا عن حدود تطبيقها على الخطاب النبوي.. ولا سيما في جوهره التعليمي، مما يعيد الثقة مرة أخرى- بعد زمان طويل من التغريب- بإمكان خلق نظرية بلاغية عربية ذات نسق عربي خاص يعترف بخصوصية الأنساق الكلامية العربية.

إن دراسة الخطاب النبوي في دلالته على تفرد وخصوصية أمر قديم ظاهر في العناية التي أفردت له في الدرس التراثي، في مثل المجازات النبوية التي أبدعها الشريف الرضي، وهو الخيط الذي ظل موصولًا بحياة العلم حتى العصر الحديث.. وإن اتخذت هذه الحياة مسارات متنوعة قابلة لمزيد من التنوع في قابل الزمان، ليظل ذلك كله شاهدًا على المكانة المرموقة التي يحتلها النص النبوي الشريف في الميزان الحضاري للخطاب الإسلامي، وليظل شاهدًا كذلك على عظمة النبي ﷺ.